الباب الخامس

تفسير التاريخ والعلوم المساعدة

- مبحث تفسير التاريخ، صعوبته والخائضون فيه.
- الجغرافيا وتفسير التاريخ
- الاقتصاد و التاريخ
- علم النفس و التاريخ
- الأدب و التاريخ
- التفسير الدينى للتاريخ
- «إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافِظُون»
- الاجتماع و التاريخ
- الفلسفة و التاريخ
- علوم أخرى مساعدة.
- كلمة أخيرة .

تفسير التاريخ، هو أصعب مباحث هذا الكتاب، من حيث كون الخائضين فيه أكثر الباحثين لجاجاً، وأعمقهم خلافاً. وقد أخذ هذا المبحث على يد كثير من الفلاسفة والمتفلسفين أبعاداً ميتافيزيقية، ولأن هذا الكتاب مجرد مقدمة في علم التاريخ، لذا فقد ابتعدنا عن هذه الخلافات قدر الإمكان.(١)

والمقصود بتفسير التاريخ هو البحث عن العوامل المؤثرة في مسيرة الأحداث وغالبا ما تكون هذه العوامل أو الدوافع هي نفسها البواعث أو الدوافع التي تدفع الإنسان للحركة والتصرف والتي تصبغ عمله وتصرفه وحركته بسمات خاصة.

فالإنسان يتحرك أو يعمل بدافع إطعام نفسه وأهله، وبدافع التفوق وبدافع الزواج وبدافع السيطرة والتملك وبدافع الفكرة. وهو إزاء ذلك كله قد يكون كيسا لينا يتحايل، وقد يكون عنيفاً عدوانياً يهاجم. وهو في هذا كله قد يواجه بظروف ميسرة سهلة منها الظروف الجغرافية من ثراء البيئة وخصبها، وقد يواجه بظروف صعبة منها جفاف البيئة وقلة النساء وما إلى ذلك.

وهذه الدوافع الفردية، وتلك الظروف التي يواجهها الفرد، هي - فيما أرى - نفس بواعث الجماعات أو دوافعها. وبالتالي فهي نفسها العناصر الكامنة وراء حركة التاريخ، فالأحداث الإنسانية عبر التاريخ إما يحركها الباعث الاقتصادي (البحث عن الطعام وما إلى ذلك) أو باعث السيطرة والتملك (الاستعمار) وإن كان العامل الاقتصادي كامنا على نحو أو آخر في حركة الاستعمار، والعامل النفسي متمثلا فيما يعتري بعض الزعماء أو الحكام من أمراض نفسية تصل إلى حد جنون العظمة أو عشق الدماء، فيوردون شعوبهم موارد التهلكة.

وعامل التفوق والهداية، وهذا يتجلي في حالة اعتناق الإنسان لأفكار مسيطرة تأخذ عقله ولبه فيخرج ليدعو الناس إليها أو ليفرضها عليهم فرضا.

وهناك من ينظرون لتفسير التاريخ، لا على أنه بحث في العوامل المسيرة للأحداث، وإنما

---

(١) يمكن للباحث أو الطالب ذي الشغف بالدراسات الفلسفية القراءة في هذا المجال في كتب فلسفة التاريخ، ولعل أشهر من خاض هذا المجال هو الفيلسوف الالماني هيجل.

تأمل في طبيعة تتابع هذه الأحداث والفكرة الكامنة وراء ذلك. وهم في محاولة فهم طبيعة هذا التطور يحاولون أن يوجهوا الأحداث بما يتفق مع فكرتهم هذه. فلما كان الصراع الطبقي فيما يرى الماركسيون هو طبيعة حركة التاريخ عبر الزمن، فلا بأس من تفجير هذا الصراع والإسراع بحدوثه .

ا - الجغرافيا وتفسير التاريخ :

عادة يبدأ الباحث التاريخي بحثه بتوطئة جغرافية، يحدد فيها الحدود المكانية للمنطقة أو الدولة أو الكيان الذي يؤرخ له. وغالبا ما لا يكتفي الباحث بالحدود السياسية، وإنما يورد بعض اللمحات الجغرافية الخاصة بالمنطقة التي يؤرخ لها وعادة ما لا يقدم الباحث تفصيلات جغرافية شاملة، وإنما ينكر من الحقائق الجغرافية ما يخدم أغراض بحثه.

فالباحث في مجال التاريخ الأفريقي عادة ما يركز على الغطاء النباتي والمناخ والمجارى المائية لما في ذلك كله من أثر في حركة الانسان وسلوكه وتجمعاته وثقافته، بل إن هذه العوامل تلعب دوراً واضحا في نتائج المعارك وتحركات الجيوش، بل وفي معتقدات الانسان، فالأرواح لدى الانسان الأفريقي الاستوائي غالبا ما تقطن الغابة.

وفي بعض مراحل التاريخ كان الجبل والبحر بل والنهر عائقا يحدد سير المعارك، وكثيرا ما ساعدت الظروف الجغرافية على احتفاظ بعض الأجناس بنقائها الجنسي النسبي.

كما أن للمناخ دورا في صياغة أخلاق الناس إلى حد ما سواء بشكل مباشر أو غير مباشر بمعنى تأثيره على الغطاء النباتي، غابة وحشائش، وصحراء.

ومع كل هذا فإن التفسير الجغرافي للأحداث التاريخية كثيرا ما يوقع الباحث في أخطاء رهيبة، فالجهد الانساني والعلم كثيرا ما ينتصران على العوامل الجغرافية. ومن الأخطاء الطريفة التي يوقع فيها التفسير الجغرافي ما ذكره صاعد الأندلسي إذ يقول .

« .. وأما الترك فإن فضيلتهم التي برعوا فيها هي معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، فهم أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والرماية، ودون ذلك طبقة لم تعن بالعلوم، وهم أشبه بالبهائم منهم بالناس لأن من كان منهم موغلا في بلاد الشمال فافراط بعد الشمس عن مسامة رؤوسهم

برد هوائهم، وكثف جلودهم. فصارت كذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجة، فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا وبذلك دقة الأفهام، وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة»(١)

أما روم لاندو فهو يفسر بعض المعتقدات العربية قبل الإسلام تفسيرا جغرافيا طريفا إذ هو يربط بين تصور العربي للجن أو العفاريت وبين طبيعة المنطقة الصحراوية ومناخها الحار، ويقارن هذا التصور بتصور سكان أوروبا الشمالية حيث البرد والثلج، فيقول :

«إن تاريخ العرب القديم مزيج من الحقيقة والخيال، وذلك قدر مقدور يشمل التواريخ القديمة للشعوب جميعا. والواقع أن الخرافات السكندينافية القديمة تتكشف عن شبه رائع بخرافات العرب الأقدمين. ولقد ساعد المناخ على دفع هذه الخرافات في ألاتجاه الذي اتخذته. فبينما أدى «المؤثر الدافيء» في احتكاكه بالثلج والجليد إلى خلق عمالقة الصقيع السويدية، خلقت الجن عند العرب من نار خالصة لا يشوبها دخان.)(٢)

ويعلل باحث آخر أسباب تأخر الأفريقيين أو بمعنى آخر أسباب وجودهم على الحالة التي كانوا عليها حال الغزو الأوربي لبلادهم تعليلا جغرافيا فيقول:

«وخلال فترة الاستعمار نشر الأوربيون آراء سيئة عن الجنس الأسود بعد أن خربوا ما وجدوه ببلاده من دول وحضارات. وزعم بعض كتابهم - ومنهم كثير من رجال الدين المسيحي- أن الجنس الأسود ليس من البشر، ولهذا يجوز صيده وبيعه والمتاجرة فيه. وذهب آخرون إلى أن روح الانسان الأسود سوداء أو أنه لا روح له أصلا. وتمت بالفعل عمليات إبادة السود في بعض الأقاليم مثل جنوبي أفريقيا وزمبابوي التي سميت باسم استعماري من عتاة القاتلين باستذلال الشعوب الضعيفة وهو سيسل رودس.

والحقيقة أن الجنس الأسود وجد في ظروف جغرافية قاسية : وجد في بلاد تغطيها الغابات الكثيفة وتشتد فيها الحرارة وتكثر الوحوش والحشرات والحيات مختلفة الأنواع وغيرها

---

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي. عن : ملت محمد الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب . بيروت ، دار العودة، ١٩٧٠، ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) لاندو ، روم : الاسلام والعرب. ترجمة منير البعلبكي. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٧، ط ٣، ص ١٣.

من الحشرات والعناكب السامة والحيوانات الكاسرة. وفي هذه البيئة تكثر الأمراض الفتاكة التي تنقلها الحشرات وتسببها أصناف لا حصر لها من الجراثيم التي تتكاثر وتتوطن في هذه الظروف الجغرافية المواتية لها. يضاف إلى ذلك أن حرارة الجو لا تشعر الإنسان بالحاجة إلى الملابس، ووفرة الطعام لا تحفز الذهن على النشاط، فلم يجد الإنسان صعوبة في إشباع غرائزه الأساسية، فظلت الغريزة غالبة نشيطة في حين لم يجد الذهن ما يدعو إلى تنشيطه وصقل ملكاته ومواهبه. ونظراً لكثرة أسباب الموت من أمراض ووحوش وهوام وحروب لا تنتهي بين القبائل نما في القلوب خوف من الموت، ولم يجد الإنسان سلاحا لدفع هذا الموت الذي كان يحصد الناس بصورة قاسية ودائمة إلا السحر والكهانة لدفع الأرواح الشريرة. وسيطرت المخاوف والسحر والكهانة على ذهنه فلم يستطع الاستجابة لتحدي الحياة استجابة فعالة. وغلبت عليه نتيجة لذلك الطوطمية وعبادة الأوثان ولإرضاء الأرواح الشريرة ورموزها من طواطم وأوثان نظم الانسان احتفالات يدور فيها رقص وتعزف موسيقى وتشعل نيران، وكل هذه وسائل لمحاربة الخوف وإشعار الانسان بشيء من الأمن الزائف.

وهذه كلها أشياء شغلت ذهن الإنسان الأسود في غاباته فلم تسنح له الفرصة ليسير في طريق التقدم بنفس السرعة التي سار بها غيره من الأجناس، ولكنه - في المستوى والظروف التي كان يحيا فيها - أنشأ لنفسه إطاراً حضاريا متواضعا فعلا ولكنه كان وافيا بحاجاته، وتمكنت قبائله من مقاومة الفناء.

وعندما عرف هذا الانسان الأسود حضارة أرقى مما عنده وهي حضارة الاسلام وارتفعت من قلبه المخاوف .. تفتحت مواهبه وأنشأ الدولة المنظمة ....»[1]

وقد يكون هذا صحيحا والواقع أن علاقة البيئة بالانسان، تختلف عن علاقتها بالحيوان. فالحيوان يتأثر بالبيئة الجغرافية تأثرا كاملا فهو أحيانا يتلون بلونها، ويسمك جلده إتقاء بردها أو حرارتها .. وهو يؤثر فيها تأثيرا قليلا فقد يعري غطاءها النباتي، أو يحفر أرضها جحورا ومخابىء وما إلى ذلك. أما الإنسان، بما أوتي من عقل، فإنه كثيراً ما يغير البيئة أو يتعامل معها تعامل الند مع الند، ففي التاريخ الحديث مثلا ما عادت الجبال أو البحار عوائق حقيقية في

(١) مؤنس، حسين: الحضارة. الكويت، المجلس الوطني للثقافة، ١٩٧٨ (١٣٩٨ هـ)

كثير من الحالات، فقد عبد الإنسان فوق الجبال طرقا ومخر عباب البحر بالسفين، وقطعه بالطائرات.. بل لقد خرج خارج الغلاف الأرضي محترقا الجاذبية. وأحياناً يعبأ الإنسان بأفكار قوية محركة فتعطيه دافعا هو أقوى من الباخرة والقاطرة والطائرة، فقد انتشر الاسلام انتشارا مذهلا من المحيط إلى المحيط، فما عاقته على الجانب الآسيوي جبال إيران ولا عاقته في الجانب الأفريقي جبال أطلس ولا الصحراء الكبري ولا كثافة الغابة، وعبر أوروبا فما عاقته جبال آسيا الصغري ولا حالت دونه برودة.

٢ - الاقتصاد والتاريخ :

كثير من الهجرات الجماعية عبر التاريخ، لا يمكن تفسيرها إلا تفسيرا اقتصاديا. وتحركات القبائل العربية عبر رمال الجزيرة الواسعة كانت في كثير من الأحيان بحثا عن الكلأ والماء، والهجرات العربية في القرن التاسع عشر عبر البحر الأحمر كانت بقصد الاستقرار، واهتمام القوي الأوروبية هذه الأيام بمنطقتنا العربية يكمن خلفه النفط والموقع الاستراتيجي. وحركة الكشوف الجغرافية التي قادها البرتغاليون كان هدفها الأساسي الوصول لبضائع الهند، وكشف افريقيا واستعمارها كان يكمن وراءه منتجات الغابة الافريقية بما فيها من خشب وزيوت نخيل، تلك الزيوت التي كانت تستخدم في تشحيم الآلات والتي كان التكالب عليها لا يقل عن التكالب على البترول هذه الأيام.

ومع هذا فإن الاغراق في التفسير الاقتصادي كثيرا ما يجنح بالباحث عن الطريق السليم ومن ذلك ما قاله أحد الباحثين :

«.. وفي عهد عثمان، الخليفة الثالث، اندفعت القوات العربية غربا وجنوبا بحثا عن الثروة، ففرضت الجزية على قرطاجة وأخضع بربر طرابلس الغرب، وبني أول أسطول عربي، وبه استولي العرب على جزيرة قبرص وغزوا رودس، وبمر الاسطول البيزنطي عند الشاطىء الليقيائي (معركة ذات الصواري)»[1].

والواقع أن العرب في عهد عثمان رضي الله عنه لم يكن ينقصهم الثروة. ومن الذين اهتموا بالبحث في التفسير الاقتصادي للتاريخ مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) وريكاردو (١٧٧٢-١٨٢٣) وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣).

---

(١) لانتو، رولم : المرجع السابق . ص ٦٢ .

٣ - علم النفس والتاريخ :

ركز بعض الباحثين على العواطف البشرية من حب وكره، ويقظة وحلم، في تسيير أحداث التاريخ، وركز باحثون آخرون على أن الزعماء أو القادة يدفعون الجماهير للحركة بإثارة عواطفهم. وقد وفق الباحثون أحيانا في تحليلاتهم هذه، وفشلوا فشلا ذريعا في أحيان أخرى. ومن هؤلاء الذين فشلوا في تعليلاتهم النفسية روم لاندو في قوله :

«وتنص الرواية على أن محمدا رأى فيما يراه النائم – وكان آنذاك في الأربعين من عمره – الملاك جبريل يتحدث إليه .... وإنما حدثت هذه الرؤيا، ورؤى تلتها في غار قرب مكة حيث كان من دأبه أن يستغرق في التأمل...»[١]

فروم لاندو لم يجد تفسيرا للوحي إلا بالحلم. وهذا ضد منطق التاريخ، فهل يحقق حالم ما حققه الرسول عليه السلام؟ وهل تنتشر دعاوي حالم هذا الانتشار المذهل في فترة وجيزة؟ والواقع أن المستشرقين قد اشبعوا الرسول المصطفي تحليلا من وجهة نظرهم المريضة تلك، وكلها تحليلات خاطئة.

ومن التحليلات المصيبة ما ذكره المؤرخون عن تأثير مسلك جوزفين، زوجة نابليون الخائنة أو التي كان يشك فيها، على قراراته.

٤ - الأدب والتاريخ :

يريد المؤرخون للتاريخ أن يكون علما وصفيا تحليلياً يتسم بالدقة الشديدة، ومن هنا فإن اعتماد المؤرخ على الأعمال الأدبية يجب أن يتسم بالتحفظ الشديد، وأن يتجنب قدر الإمكان استخدام الأعمال الأدبية مرجعا أو مصدرا لاستقاء الوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، طالما كانت هناك مصادر أخرى أكثر دقة كالوثائق والمسكوكات والرنوك والآثار، ثم بعد ذلك تأتي مراجع المؤرخين وكتاباتهم مع تركيز على أولئك الذين عايشوا العصر الذي يؤرخون له، ثم تأتي الآداب والفنون.

فقصائد المديح في السلاطين والملوك لا تعني بالضرورة أنهم سلاطين أو ملوك عادلون،

---

(١) لاندو ، روم : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

وقصائد التشاؤم والتي تبدي الحياة سوداء ليس فيها ما يستحق أن يحيا الإنسان من أجله، لا تدل على خواء الحياة الإجتماعية والثقافية والسياسية في عصر الشاعر بالضرورة، بقدر ما تدل على طبيعة الشاعر وتركيبه السيكولوجي. وقصائد الحماسة العالية النبرة نضالا وجهاداً، لا تدل بالضرورة على روح قتالية عالية، بل إن قصائد الوطنية والبكاء على ذكري تراب الوطن عندما تكثر، وتشكل ظاهرة قد تعني تاريخيا. عكس ما ترويه تماما.

وليس المقصود هنا ما كتبه باحثون عرب اتخذت كتاباتهم طابعا أدبيا كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني[1] إذ الواقع أن كتاب الأغاني كتاب موسوعي اختلطت فيه الحقائق الأدبية بالحقائق التاريخية.

كما أن هذا أيضا لا يعني إنكارنا لرجوع الباحث للأعمال الأدبية إنكاراً تاما، بل إننا نوصي بالتحرز فقط، لكن إذا كانت هناك مصادر ومراجع تاريخية أخري تؤكد ما يرويه الشاعر فلا بأس من الاستئناس بما قال.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأشعار الشعبية أو العامية أو النبطية تعتبر في بعض الحالات مصدراً من ومصادر التاريخ تزداد قيمتها إذا عدمنا مصادر أخرى. لكن أحد عيوب هذا المصدر أن المؤلفين عزفوا عن تدوينه ردحا من الزمن لأنه ليس على اللفظ العربي. لكن كونه بغير الفصحي لا يقلل من قيمته كمصدر تاريخي في الواقع، فهو في هذه الحالة يكون أقرب لروح الشعوب، وأكثر تسجيلا لعاداتهم وتقاليدهم ومسيرة حياتهم غدوا ورواحا..

ولقد ارتبطت حركة تدوين الشعر العامي والاحتفاء به في بعض الحالات بالحركة الهادفة إلى ضعضعة الفصحي والقضاء على سطوتها، لكن القائمين على ذلك لم يكونوا جميعهم من ذوي النوايا السيئة.

وفيما يتعلق بالشعر النبطي في جزيرة العرب فيعود أول ما روي لنا منه إلى القرن السابع الهجري... ومنذ أواخر القرن الماضي كثر المهتمون به .... وأول ما طبع منه ديوان صغير للشيخ قاسم بن ثاني سنة ١٣٢٨ هـ .. والشعر النبطي في الجزيرة هو أقرب الأشعار الدارجة في البلدان العربية إلى الشعر العربي الملتزم»[2]

---

(١) ولد أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني سنة ٢٥٦ هـ (٩٦٧ للميلاد) وكتابه الأغاني من الكتب الشهيرة طبع أكثر من طبعة أشهرها طبعة القاهرة في ٢١ جزءاً.

(٢) العثيمين، عبد الله الصالح : الشعر الشعبي مصدرا لتاريخ نجد. في : مصادر تاريخ الجزيرة العربية، بحوث الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية. الرياض، جامعة الرياض ١٩٧٧.

وفي بعض الفترات التاريخية العربية يجد المؤرخ نفسه مضطراً للاعتماد اعتمادا كاملا على الشعر كدراسة حالة العرب قبل الإسلام، ويذهب بعض الباحثين إلى نتيجة مؤداها أن ذكر الشاعر العربي لأسماء الأماكن أو الأطلال في مطلع قصيدته ليس المقصود منه البكاء على الطلل أواستدعاء التكري فحسب، وإنما هو يرسم خريطة طبوغرافية لهذه المواقع لهدف تعليمي ووطني إن جاز هذا التعبير فكأن الشاعر يريد أن يقول لأهله وأفراد قبيلته إن أردتم الذهاب لهذا المكان فطريقة كذا وهو بين الدخول فحومل مثلا[1] – وأظن أن هذا الباعث في ذكر الأماكن يعتبر من النتائج الجديدة في حدود علمي.

والواقع أن التاريخ كعلم بما وصل إليه من دقة وانضباط أصبح مصدرا لكثير من الأعمال الأدبية وليس العكس، فأصبحنا نسمع عن الرواية التاريخية والمسرح التاريخي بل والإشارات التاريخية في الشعر. والواقع أن الروائي أو كاتب المسرح يفعل في هذه الحالة شيئا شبيها بما يفعله المؤرخ مع اختلاف في طبيعة عمل كل منهما فالروائي أو كاتب المسرح التاريخي، يبدأ بتجميع كل الروايات والأحداث والوقائع عن الحدث أو الشخصية التي يريد أن تكون موضوعا لعمله الأدبي. وفي مرحلة تالية يبدأ في توثيقها والتأكد من صحتها حتى لا يبني عمله الأدبي على خرافة أو رواية باطلة خاصة إذا كان مجال عمله الأدبي حدثا دينيا أو شخصية دينية. ثم يختار من الأحداث أقربها لنفسه، وأكثرها خصوبة، وقدرة على استيعاب شخصياته، وأخيرا فهو عندما يشرع في صياغة عمله الأدبي يجد نفسه مضطرا لاستخدام خياله وتحليل علم النفس لاعطاء شخصياته بعداً دراماياً إنسانياً قد لا يجده في كتب التاريخ ووثائقه، فالتاريخ – مثلا – يظهر قائد الجيش قويا منضبطا حازما، لكن الكاتب المسرحي أو الروائي يظهره كذلك في جيشه وبين جنوده، ولكنه يتخيل هذا القائد القوي وديعا لينا عند مداعبة طفله أو التودد لزوجته.. أو يصوره يبكي أحيانا على ذكرى حبيب مات .. وهكذا[2]

والواقع أن المؤرخ لو التزم بالدقة التي يتطلبها العلم التاريخي، ثم أوتي بعد ذلك حظاً من

---

(١) الربعي، عبدالله الناصر : تحديد الشعراء العرب للمواقع الجغرافية. في : مصادر تاريخ الجزيرة العربية بحوث الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية. الرياض، جامعة الرياض (الملك سعود)، ١٣٩٧ (١٩٧٧)م ص ٢٦٣ – ٢٧٢.

(٢) لمؤلف هذا الكتاب تجارب في كتابة الرواية والمسرحية التاريخية، ومن ذلك (جاريوزا في بيت الأرواح) عن تحول الأفريقيين للإسلام وهي مسرحية فازت بجائزة المجلس الوطني للثقافة في الكويت بمناسبة دخول القرن الخامس عشر الهجري ورواية (الدق على الأبواب الشرقية) وقد فازت بإحدى جوائز المجلس الأعلى للثقافة في مصر.

خيال الأديب وفن الفنان فإنه يكون بذلك قد بلغ الغاية في البحث التاريخي.

على أن الاطلاع على الأعمال الأدبية نفسها يعد ضرورة لازمة عند الحديث عن الحياة الفكرية والثقافية، فلا يكفي هنا في الواقع أن يأخذ المؤرخ المعاصر، عن المؤرخين الآخرين فحسب، وإنما لابد له من الاطلاع على بعض الأعمال الأدبية والفكرية بنفسه، وهذه الأعمال لا تعد في الواقع مرجعا فحسب بل مصدرا أساسيا في هذه الحالة. إذ لا يكفي أن يقرأ الباحث في كتب التاريخ عن ازدهار الأدب في العصر العباسي دون أن يتذوق هو بنفسه طرفا من هذا الأدب، ولا يكفي الباحث عندما يكتب بحثا تاريخيا عن هيكل أن يقرأ في كتب التاريخ أنه منشىء الرواية أو رائدها في مصر والعالم العربي، ومؤلف كتاب حياة محمد، وإنما لابد للباحث من قراءة رواية زينب بنفسه وكتاب حياة محمد. ولا يكفي المؤرخ الذي يكتب عن دور طه حسين في الحركة التعليمية والأدبية في مصر أن يقرأ ما ذكره المؤرخون والباحثون عن ذلك وإنما لابد من قراءة كتب طه حسين كلها بنفسه. إن هذه الكتب تعتبر في هذه الحالة مصدرا أساسيا. والذي يكتب بحثا تاريخيا شاملا عن عصر من العصور أو حقبة من الحقب لابد أن يكون أحد فصول بحثه عن الحياة الأدبية والفكرية، والرجوع إلى الأعمال نفسها كما سبق يعد أمراً ضروريا لسبب رئيسي وهو أنه في بعض الأحيان يحكم مؤرخو العصر على أعمال تافهة بأنها قمة الروعة، لا لجنوح إلى الهوى وإنما لأن أذواق أهل العصر منحطة أو لتدهور اللغة والأدب، ومن هنا يجد الباحث في كتب المؤرخ الذي هو لسان عصره مدحا لهذه الأعمال وفي هذا دليل للمؤرخ على مستوى العصر الأدبي والفكري.

٥ - التفسير الديني للتاريخ :

وهذا النوع من التفسير شائع بين الباحثين اليهود، وهم يتخذون التوراة مصدرا أساسيا للتاريخ رغم ما اعتراها من تشويه وتبديل. الباحثون اليهود يرون أن البشر وقعوا في الآثام والشرور وأن الخطيئة شملتهم، ولم ينج من هذا إلا الشعب المختار

والإنسان في التوراة مسير، أو بمعنى أدق فإن مسيرة التاريخ لا مناص منها، ولافكاك عنها، وأن التوراة هي المصدر الأساسي للأحداث التي روتها.

والحقيقة أن نص التوراة ظل حتى هذه الأيام موضوع مراجعة وتغيير، بل إن النص التوراتي ليس له ترجمة متفق عليها، ومازال التغيير والمراجعة دأبه ودأب المغيرين والمراجعين حتى هذه الأيام. ومن الضروري في هذه الحالة من حيث دقة المنهج التاريخي أن نرجع لمراجع مسيحية ويهودية.

«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[1]

نقرأ في مجلة القيم الصادرة في ٥ يوليو سنة ١٩٨٢ ما يلي :

«منذ ألفين ومائتي سنة، قامت مجموعة من العلماء اليهود بلغ عددهم سبعين بترجمة الإنجيل (العهد القديم) من العبرية لليونانية، وكان ذلك في مدينة الإسكندرية وقد ظهرت ترجمتهم وأصبحت عملا معروفا في التاريخ يتسم بالعظمة. وقد عرف عملهم هذا باسم eptuagint وهي كلمة مشتقة من اللفظ اللاتيني بالذي يعني الرقم سبعين لأن الذين ترجموا هذا العهد القديم كان عددهم سبعين، وبالنسبة لليهود التقليديين في القرون التي تلت ذلك، فإن الإنجيل (العهد القديم) قد ترجم أو صيغ من وجهة نظر يهودية. ولكن كانت هناك ترجمات تفتقد الصفة الرسمية، فقد كان هناك مترجمون أفراد يقومون بالترجمة بمفردهم وليس من خلال لجان من الباحثين أو الأكاديميين والآن (١٩٨٢) ولأول مرة منذ الترجمة اليهودية الأولي (منذ ٢٢٠٠) سنة تم تشكيل لجنة ترجمة يهودية لترجمة العهد القديم من العبرية إلى الإنجليزية وهذا الإنجيل اليهودي الجديد (وهو ترجمة ما يسميه المسيحيون العهد القديم) أصبح يسمي الكتاب المقدس Holy scriptures قد تم إنجازه في الشهر الماضي (يونية) وهو بذلك آخر الأناجيل المكتوبة بالإنجليزية حتى الآن وكانت آخر إعادة نظر في الإنجيل تلك التي تمت سنة ١٩٥٢ م ونشرها المجلس الوطني للكنائس"ANational Council of churches' .

ترجموا الأكواب Cupds بالنبيذ والخمر Wine :

وتمضي المجلة في تحقيقها فتقول «لقد اكتشف العلماء بعد مراجعة عديد من المصادر القديمة بأن الكلمة العبرية ممساح Mimsah في الآية ٣٢/٢٠ ترجمتها الأكواب Cups وإنها ترجمت خطأ بالخمور أو النبيذ Wine وعلى هذا فالترجمة القديمة خطأ.

(١) مقال اتخذ عنوانا له هذه الآية الكريمة، نشره المؤلف في جريدة السياسة الكويتية.

ملحوظة : الترجمة القديمة التي يتعبدون على أساسها منذ نزلت التوراة حتى يونية سنة ١٩٨٢ والتي يتعبد المسيحيون على أساسها منذ ضلوا بعد المسيح عليه السلام حتى ظهور هذه الترجمة في أوائل يونية سنة ١٩٨٢ أي الشهر الماضي.

الله واحد أحد Lord is one جعلوه وحيدا معزولا Lord alone :

وتمضي مجلة التيم – الموجودة الآن في مكتبات العالم – فتقول «اسمع، يا اسرائيل إن الرب الهنا واحد» «أما الترجمة الجديدة فهي «اسمع يا اسرائيل إن الله هو الهنا وهو الرب الوحيد» ويضيف المترجمون أن الكلمات عندما كتبت في الأصل لم تشر إلى واحدية الله Not Gods Oneness ..

* * *

ليس هناك تعليق على هذه المقتطفات التي لا أراها جديدة، ولا أراها أخر ولا أول ما وجه من تهم ونقد للنص التوراتي والانجيلي، وإنما ترجع التعلة في الإشارة لها لسببين، أولهما أن هذا النقد منشور في مجلة عامة، وهي مجلة التيم Time في عدد حديث يسهل الحصول عليه، وثانيهما أن الناشرين لهذا النقد هم من المتعمقين في الدراسات العبرية واليهودية والمسيحية.

ولعل هذا يجعل الذين يطالبون بترجمة القرآن والصلاة بنص قرآني مترجم أن يجدوا عبرة في ذلك !!

إنهم مختلفون في النص الأساسي .. مختلفون في المعاني الأساسية .. فهل هناك مسلمان مختلفان في نص القرآن ؟ قد يختلفان في المعاني والتفسير والتأويل، لكن الزمن في النهاية يساعد على رسوخ التفسير الصحيح وفقا لتطور العلم ومسار التاريخ وكم من آية كانت مجهولة المعنى ثم أتي العلم فألقي عليها ضوءا.

والقرآن الكريم ، كتب وقت نزوله وفي عهد الرسول (ص) الذي انزل عليه . وبعد وقعة اليمامة ندب أبو بكر بناء علي اقتراح عمر زيداً بن ثابت لجمع القرآن وكتابته، إذ كان أحد كتاب الوحي ومن اوثق الحفاظ وبقيت هذه الصحف مرتبة تحت رعاية أبي بكر وعمر من بعده ثم أودعت بيت حفصة بنت عمر بعد موت أبيها ولما اتسعت ديار الإسلام وتفاوتت قراءة القرآن وفقا لاختلاف الألسنة جمع عثمان الصحابة واستشارهم في تجميع القرآن في مصحف واحد تُنسخ منة نُسخ

Religion

A Bible No Longer So Greek

-١٦٢-

Jewish scholars complete a historic translation

In Alexandria 2,200 years ago, a group of 70 Jewish scholars translated the Bible from Hebrew into Greek. Their great work became known to history as the Septuagint, from the Latin word for 70. For adherents of traditional Judaism in later centuries, however, the only true Bible was the Hebrew version. What translations there were lacked official standing; most were turned out by individual translators rather than broadly based committees of scholars.

Now, for the first time since the Septuagint, there is a generally recognized Jewish committee translation from Hebrew into the contemporary usage of another language: English. This new Jewish Bible (what Christians term the Old Testament) has been titled the Holy Scriptures. Completed last month, it is the latest of several major new English Bibles, but all the others were Christian undertakings, beginning with the Revised Standard Version, published in 1952 by the National Council of Churches.

Though consultants from Judaism's Orthodox, Conservative and Reform branches were involved, the Holy Scriptures is primarily the work of the Jewish Publication Society of America rather than any rabbinical group. The originator of the project was Harry Orlinsky of the Hebrew Union College–Jewish Institute of Religion. Two parts of this Bible were previously published, the Torah (1962) and the Prophets (1978), directed by H.L. Ginsberg of the Jewish Theological Seminary. With this final part, the Writings, consisting of a revision of the previously issued *Psalms* and a dozen other biblical books, the new Jewish Bible is finally complete. This last section was translated by three U.S.-trained experts: Moshe Greenberg and Jonas Greenfield of Hebrew University in Israel and Nahum Sarna of Brandeis University. They were assisted by Newsist-Rabbi Chaim Potok (*The Chosen*), who served as coordinator and literary consultant. The Holy Scriptures will certainly stand as a landmark of Jewish religious scholarship.

Ever since its founding in 1888, the Jewish Publication Society of America has wanted to produce a major English-language Bible. Its first effort, in 1917, was essentially one man's touch-up of Protestantism's venerable King James Version but it sold more than 1 million copies and was until now, the standard Jewish translation for the English-speaking world. The strength and selling point of the new Bible, rendered directly from Hebrew to English, is that it ignores the wording of all past Christian translations and turns Holy Writ into fresh, understandable contemporary language instead of Elizabethan English. The Holy Scriptures is drawn solely from the Masoretic text in Hebrew, which evolved into its present form by the 10th century and is Judaism's only official scriptural standard. By comparison, Christian translators consult a variety of scrolls and codices in Hebrew and other ancient languages in order to reconstruct what they hope is the original wording of millennia ago.

The scholars relied on many ancient sources to interpret the meaning of the Masoretic text. Tablets in Ugaritic that have been unearthed by archaeologists told them that the rare Hebrew word *mimsah* in *Proverbs 23: 30* means "cups," not "wine" as previously translated. In *Psalms 1: 2*, they changed "meditates" to "studies," based on the historical finding that ancient Jewish study involved vocal recitation. A footnote points out that the Hebrew verse literally "utters." Says Translator Sarna: "In all cases the true intention of the text is the decisive factor."

H.L. Ginsberg

Harry Orlinsky

Nahum Sarna

Occasionally the new version may sound almost religious to an ear attuned to the 1917 phraseology. For instance, Judaism's most famous invocation, the Shema Yisrael of *Deuteronomy 6: 4*, was formerly rendered traditionally as "Hear, O Israel: the Lord our God, the Lord is one." Now it is "Hear O Israel! The LORD is our God, the LORD alone." The translators contend that the point of the words when originally written was not God's oneness, which is a theological concept, but rather his exclusivity at a time when Israel's neighbors worshiped many deities.

Modernization brings obvious gains in clarity. Here is *Proverbs 11: 24* in the 1917 version: "There is that scattereth, and yet increaseth. And there is that withholdeth more than is meet, but it tendeth only to want." Stumped? The new Bible's version: "One man gives generously and ends with more; another stints on doing the right thing and incurs loss." The profound "forty and four thousand seven hundred and three score" comes simply "44,760." Although Holy Scriptures generally aims at formal literary and liturgical style, some of the modern Christian translations' contemporaneity or jarring or inconsistent. Prov. 31 ("A woman of valor, who sounds a tad too colloquial a rare find is a capable wife!"

The previously published volume has already sold 350,000 is now the basis for biblical s many non-Orthodox synagog modern translations are also l thousands of Jewish study g the U.S. When the full Bib available in a one-volume e year, it ought to become a st on the bookshelf of many a well. —*By Richard N. Ost*

By Michael P. Harris/New York

Rewritten Writ

Old (1917) Version of *Genesis 1: 1-3*: In the beginning God created the heaven and the earth. Now the earth was unformed and void, and darkness was upon the face of the deep; and the spirit of God hovered over the face of the waters. And God said: "Let there be light." And there was light.

New Version: When God began to create the heaven and the earth—the earth being unformed and void, with darkness over the surface of the deep and a wind from God sweeping over the water—God said, "Let there be light"; and there was light.

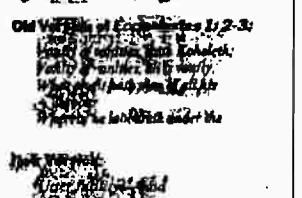

ترسل للأمصار (البلاد) فأقروه على ذلك واستنسخوا من النسخة الموجودة عند حفصة نسخاً يبعثوا لكل قطر نسخة عرفت باسمه .

والآن وعلى كثرة خلافات المسلمين .. وعلى كثرة تناحرهم .. وعلى كثرة مايقعون فيه من سفاهات فإن آيات القرآن الكريم لاخلاف عليها ولاسفه فيها ولاتتناطح فيها عنزان .. الكل متفق عليها .

يا لجلال القرآن .. يالصدق الباري .. «إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون» صدق الله العظيم[1]

* * *

والواقع أن النصوص الدينية الإسلامية (قرآناً وحديثاً) لم تتكر دور الإنسان في مسار الأحداث، ومن هنا فإن المتصفح لمراجع التاريخ الإسلامي، يجد المؤرخين لم يجهدوا أنفسهم في البحث عن تفسير ديني، فهم يفسرون سقوط الدول وبفساد الإنسان (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس)

وهكذا دعا الإسلام المؤرخين إلى البحث عن الأسباب المرئية والواضحة للحوادث دون تلمس هذه الأسباب لدى جن خفي أو معجزة باهرة

وكانت حياة المصطفي عليه السلام واضحة جلية لاخوارق فيها ولاخرافات، فهو عليه السلام كان حريصاً على تاكيد بشريته حتى لايعبده الناس كما عبدوا ابن مريم وهو يمرض ويصح، يرضي ويغضب وهو «ابن امرأة كانت تاكل القديد بمكة» بل لقد هزم عندما لم يتبع المحاربون معه أسس الإستراتيجية وانتصر بإيمانه وإيمان المحاربين معه .

ومع هذا فالمسلمون يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن كل شيء بإرادة الله ويذكر أحد المستشرقين أن عقيدة القضاء والقدر لم تؤثر تأثيراً سيئاً في النشاط الفكري الإسلامي طيلة قرون عشرة ازدهرت فيها الحياة الفكرية .. نعم عشرة قرون مضت قبل أن تعمل هذه العقيدة عملها السيء في نفوس المسلمين وفي الحد من نشاطهم. ثم يتساءل روزنتال أليس أحرى بنا إذن أن

---

١) الشيخ عبد الرحمن عبدالله: من الإعجاز التاريخي للقرآن الكريم، مقال منشور في جريدة السياسة الكويتية.

نفترض أنه بعد أن اضمحل النشاط الفكري عند المسلمين لقي الركود العقلي في هذه العقيدة ملاذاً يستكين فيه ؟![1]

ومع هذا الرأي المنصف نجد مؤرخين آخرين يفرغون التاريخ الإسلامي من كل معنى ومزية وهدف، ومن هؤلاء هيجل الذي يذكر في كتابه محاضرات عن تاريخ الفلسفة أن التاريخ الإسلامي معرض للتغيرات الدائمة ولاشيء غير ذلك الفتح والتوسع أبداً في استمرار ولاشيء ثابت وكلما ظهرت إحدي الموجات وارتفعت لكي تتخذ شكلاً ما اضمحلت وانحلت وهي ترتفع دون أن تفقد شفافيتها. يقصد أنه لاطعم أو لون لها[2]

أما فون كريمر (بعد هيجل بخمسين سنة) فينكر أن العالم الإسلامي يبدو ساكناً على السطح إلى أن يتفجر فجأة من الهدوء التام على شكل قوة مخربة .

وبعد خمسين سنة أخرى إتى جولد تسيهر Gold Ziher لينكر أن القائلين بأن الإسلام قد انتهي إلى أن اتخذ شكلاً جامداً لايقبل التغير مخطئون ذلك أن مجمل التاريخ الإسلامي في رأيه حرب مستمرة بين السنة والبدع .

٦ - الاجتماع والتاريخ :

وأقدم من أخذ بالتعليل الاجتماعي ابن خلدون في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادى) ولقد كانت نظرة ابن خلدون راقية للغاية . يقول ابن خلدون :

«أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لايزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف فيها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادي بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق،

---

(١) روزنتال . فرانتز : المرجع السابق . ص ١٧ .

(٢) روزنتال فرانتز : المرجع السابق. ص ١٣ .

وجدير بأن يعد في علومها وخليق، وأن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولارفضوا ترهات الأحاديث ولادفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض وطويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل . والحق لايقاوم سلطانه ، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه ، والناقل إنما هو يملي وينقل ، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمثل ، والعلم يجلو صفحات الصواب ويصقل .

هذا وقد دون الناس في الأخبار وأكثروا، وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا. والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة، وأفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة ، هم قليلون لايكادون يجاوزون عدد الأنامل، ولاحركات العوامل، مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف ابن عمر الأسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير، المتميزين عن الجماهير، وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ماهو معروف عند الإثبات، ومشهور بين الحفظة الثقات، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم، واقتفاء سنتهم في التصنيف واتباع آثارهم، والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم، فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار، وتحمل عليها الروايات والآثار، ثم إن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك، لعموم الدولتين صدر الإسلام في الآفاق والممالك، وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمتارك . ومن هؤلاء من استوعب ماقبل الملة من الدول والأمم، والأمر العمم، كالمسعودي ومن نحا منحاه .

وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد، ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد، فقيد شوارد عصره ، واستوعب أخبار أفقه وقطره، واقتصر على أحاديث دولته ومصره. كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها، وابن الرقيق مؤرخ أفريقية والدول التي كانت بالقيروان .

ثم لم يات من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على ذلك المنوال،

ويحتذي منه بالمثال، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال. فيجلبون الأخبار عن الدول، وحكايات في العصور الأول، صوراً قد تجردت عن موادها ، وصفاحاً انتضيت من أغمادها ، ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلادها، إنما هي حوادث لم تعلم أصولها، وأنواع لم تعتبر أجناسها ولاتحققت فصولها، يكررون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها أتباعاً لمن عنى من المتقدمين بشأنها، ويغفلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها، بما أعوز عليهم من ترجمانها، فتستعجم صحفهم عن بيانها . ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً . محافظين على نقلها وهما أو صدقاً . لايتعرضون لبدايتها، ولايذكرون السبب الذي رفع من رايتها، وأظهر من آيتها، ولاعلة الوقوف عند غايتها فيبقي الناظر متطلعاً بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدولة ومراتبها، مفتشاً عن أسباب تراحمها أو تعاقبها ، باحثاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها، حسما نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب .

ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار ، وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك، والاقتصار، مقطوعة عن الأنساب والأخبار، موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار، كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل، ومن اقتفى هذا الأثر من الهمل . وليس يعتبر لهؤلاء مقال، ولايعد لهم ثبوت ولاانتقال، لما أذهبوا من الفوائد ، وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد .. الخ»[1]

والتعليل التاريخي عند ابن خلدون يرتكز على حقيقة أساسية فيما يرى ابن خلدون وهي أن أحداث التاريخ نفسها هي التي يفسر بعضها بعضاً. فليس ثمة قوة خارجية تلوي رقبة التاريخ ، فطراز المعيشة وأبعاد النشاط الإنساني تؤثر في مجرى الأحداث .

ويرى ابن خلدون أن العصبية لها دور كبير في تسيير حركة التاريخ ، فقد تكون هذه العصبية ، عصبية صلة عِرْقية ، وقد تكون عصبية اتحاد جماعة في المصلحة .. ويرى ابن خلدون أن المجتمع كائن حي يبدأ طفلاً (مرحلة البداوة) ثم يتطور ويكتمل (مرحلة العمران) . والظفر في المنازعات دوما فيما يرى ابن خلدون يكون لأهل البداوة . ومن الواضح أن هذه النظرية لاتنطبق في كثير من تفاصيلها على التاريخ الحديث ، حيث أصبح للعلم والتقدم التكنولوجي تأثير كبير في حسم المنازعات ، مما يجعل أهل البادية ينتصرون على من سواهم بقدر مايحققون من علم وتكنولوجيا.

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن : المقدمة . بيروت ، ص ٢ - ٥ .

ومن أسباب سقوط الدولة وانتهاء الحضارات فيما يرى ابن خلدون شيوع الترف والظلم والمجاهرة بالفسق والفجور ، ويذهب ابن خلدون إلى أن العرب بالذات لايمكن حكمهم إلا بالدين أو باسم الدين، فهم - فيما يرى - أهل كبر وعصبيات ، والدين ينزع منهم ذلك .

الفلسفة والتاريخ :

دخلت أحداث التاريخ في مجال تفكير الفلاسفة منذ وقت مبكر، لا من حيث بواعث وقوع هذه الأحداث أو أسبابها وإنما قام الفلاسفة كعادتهم بالنظر لأحداث التاريخ نظرة فوقية أو كأنهم يطلون عليها من عَلِ ليتبصصوا كيفية مسارها، وهل الإنسان في تقدم مستمر، أم أنه ينكب نكوصا على عقبيه، وهو حال انكبابه وقيامه أيعود القهقرى، أما ينزع نفسه صوب التقدم. وراحوا يلاحظون العوامل المسيرة للتاريخ عامة لا بقصد تفسير التاريخ، وإنما بقصد الإسراع بمراحله وتطوراته فيما قالوا .. وكان ثمة مجال آخر لمباحثهم، وهو هل تتحرك هذه الأحداث التاريخية بشكل مستقل عن إرادة الإنسان أم بفعلها، وهل هناك روح أو عقل كلى أو آلهة أو إله يتدخلون في مسار هذه الأحداث بصرف النظر عن الإرادة البشرية. ولم يكف الفلاسفة منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى أيامنا هذه في القول والإعادة والترديد في كل هذه الموضوعات غير المحددة. ولعل هيجل يعد من أشهر هؤلاء، فلنعرض لبعض آرائه ببساطة شديدة قدر الإمكان.

تفسير هيجل للتاريخ :

كل عصر أو حقبة زمنية - فيما يرى هيجل - تمثل وحدة مستقلة بكل أبعادها الدينية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، هذه الأبعاد التي يسميها هيجل الكل الحي أو المجموع الحي Living Totality وأن هذا الكل الحي الذي يمثل عصرا من العصور يحوي في طياته تناقضات تتعايش معا فترة من الزمن، ثم تتولد عنها فكرة أو كل حي جديد يمثل عصرا جديداً يناقض العصر الذي قبله، وهذا العصر الجديد يتولد عنه عصر آخر له روح مغايرة .. وهكذا دواليك. وأن المحرك لذلك كله ليس إرادة الإنسان وإنما (الروح الكلية) أو (العقل الكلى) المسيطر على العالم.(١)

(١) صديقى ، عبد الحميد : تفسير التاريخ، ص ٦٢.

ويضرب هيجل لذلك أمثلة منها :

إن حضارات العالم – فيما يرى هيجل – ثلاث فقط، هي : حضارة العالم الشرقي وحضارة العالم الإغريقي الروماني، وحضارة العالم الجرماني .. فالشرق عرف ويعرف أن شخصا واحدا فقط هو الحر والعالم الإغريقي الروماني يعرف أن بعض الناس أحرار والعالم الجرماني يعرف أن كل الناس أحرار.

لذا فالشرق استبدادي، والحضارة الثانية ديمقراطية أرستقراطية والثالثة ملكية»[1]

وبوجه عام، فإن ما ذهب إليه هيجل لا يخلو من عمق فكر، لكن هذا لا يمنع أن كثيراً من الخلل وعدم الصحة أصبح واضحا في نظرية هيجل عند تطبيقه على تطور التاريخ.

فإذا كانت نظرية هيجل تحتم أن يكون العالم أو البشر في تقدم مستمر، فإن أحداث التاريخ تؤكد وجود فترات من الركود أو النكوص أو الردة الحضارية.

علوم أخرى مساعدة :

ذكرنا فيما سبق جملة علوم (الجغرافيا – الاقتصاد – علم النفس – الفلسفة – الدين) باعتبارها علوماً شاع استخدامها في تفسير الحدث التاريخي ولكن حقيقة الأمر أن كل العلوم على الأطلاق تعد علوما مساعدة للتاريخ، وذلك لطبيعة التاريخ نفسه، كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. فالذي يعد بحثا في تاريخ العلوم، لابد له من إلمامه بالعلم الذي يؤرخ له، فالباحث الذي يتناول تاريخ التعليم، عادة ما ينصحه الأستاذ المشرف على بحثه أو رسالته بالقراءة أولا في مجال التربية أو التعليم حتى تكون مصطلحات العلم وأفكاره الأساسية طوع فكره وقلمه. والباحث الذي يتناول تاريخ الزراعة[2] لابد له من معرفة شيء عن علم الزراعة ومصطلحاته، والذي يكتب بحثا في تاريخ الفنون، لا يشترط أن يكون مؤرخا فقط وإنما دارسا للفن أو فنانا، ولا يمكن كتابة تاريخ للأدب على يد أديب، ما لم يؤت حظا من أساليب المؤرخين في البحث، كما لا يمكن للمؤرخ أن يكتب تاريخا للأدب ما لم يؤت حظا من أساليب الأدباء في

---

(٢) نفس المرجع . ص ٨٥.

(٣) من المؤرخين الكبار للزراعة في مصر في عصر محمد علي وما يليه أستاذنا الدكتور أحمد أحمد الحته، ولعله الوحيد الذي أعطى هذا الموضوع جل عنايته، والتاريخ للزراعة يستتبع تاريخا للفلاح وأوضاعه والحالة الاقتصادية عامة.

التقصي. وأفضل من يكتب في تاريخ الطب والأطباء مؤرخون قرءاوا شيئا عن الأمراض وطرائق علاجها، أو طبيب مؤرخ، فلابد إذن أن ابن أبي أصيبعة مؤلف طبقات الأطباء كان طبيباً أو عالما بالطب على نحو ما، ومؤرخو الفلسفة أو الحركة الفكرية، لابد أن يكون لهم المام بذلك كله، وها نحن نرى مؤرخا كابن خلدون، برع في علم الاجتماع، حتى أن علماء الاجتماع يكادون ينتزعونه من أحضان المؤرخين. ومؤرخو انتقال الحضارات والتأثيرات الحضارية لابد لهم من جملة ما لابد منه معرفة علم اللغة أو الفيلولوجيا، لمعرفة أصول الكلمات وانتقالها من شعب إلى شعب، وما يعتري هذا الانتقال من تغيير في الكلمة. أيمكن لباحث أن يحكم على التأثيرات العربية في شرق أفريقيا، ما لم يدرس شيئا من السواحيلية (لغة شرق القارة الأفريقية) وشيئا من العربية؟!

فكل العلوم إذن في خدمة التاريخ، وإنما تتوقف المسألة على اختلاف البحوث وتباين اتجاهاتها.

كلمة أخيرة :

ذكرنا ارتباط التاريخ بالعلوم المختلفة تحت عناوين على شاكلة (الجغرافيا والتاريخ- الاقتصاد والتاريخ - الاجتماع والتاريخ .. الخ) وليس معنى هذا أن الحدث التاريخي لا يمكن تفسيره إلا من وجهة نظر واحدة، إما اقتصادية وإما اجتماعية .. الخ، فالحدث الواحد قد يفسر بأكثر من وجهة نظر واحدة، فخروج الجماعات مهاجرة قد يفسر تفسيرا جغرافيا واقتصاديا ودينيا على نحو مركب وفي نفس الوقت، إن الحدث الإنساني (التاريخي) معقد مركب بحيث يصعب تعليله بسبب أو بوجهة نظر واحدة. فإذا تعثر رجل في حجر فوقع فإن الحجر غالبا ليس السبب الوحيد، وإنما إلى جانب ذلك قد يكون الرجل ضعيف النظر، فضعف نظره يضاف إلى وجود الحجر كسبب لسقوطه، وقد يكون الرجل مريضا دائما مترنحا، وقد يكون إلى جانب ذلك كله قد خرج من بيته مكتئبا لرسوب ابنه في الامتحان أو لبعض المشاكسات التي سببتها له زوجته .. وهكذا.

ها أنت ترى أن حدثا بسيطا اشتركت عوامل عدة في تفسيره وصياغته وتعليله.